

المحاضرة رقم 03 من 12

عنوان المحاضرة: الحجاج في البلاغة العربية القديمة:

الحجاج في البلاغة العربية القديمة:

لعب الحجاج دورا هاما في الحياة العقائدية والسياسية في البيئة العربية والإسلامية، فقد كانت استراتيجية الحجاج واضحة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وفي الخطابات التي سبقت هذه الفترة بكثير، وذلك في المنافرات القبلية في العصر الجاهلي، ثم تنامت بعد بعثة النبي "صلى الله عليه وسلم"، وتبلورت في كثير من العلوم، مثل علوم الفقه وأصوله، وعلم الكلام، والعلوم اللغوية، وقد كان الإقناع مطية أطراف الخطاب في المسامرات والندوات والنقاشات، مما جعله السبيل الأقوم لإبراز مكنونات هذه العلوم والدفاع عنها¹⁶.

ويعدّ خطاب المناظرة في التراث العربي من أبرز أنواع الخطابات التي تهدف إلى الإقناع، إذ تظهر فيه سمات الكفاءات التداولية والقدرة على توظيفها حسب متطلبات السياق، فهو المطلب الأساسي في المناظرات، سواء كانت دينية، أو سياسية، أو لغوية...¹⁷.

وقد اهتم البلاغيون بالحجاج والإقناع، ويعد الجاحظ من أبرز البلاغيين الذين حاولوا التعميد لهذه الاستراتيجية، وذلك في كتابه "البيان والتبيين"، حيث يتنازع

¹⁶ - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص447.

¹⁷ - ينظر، المرجع السابق، ص449.

مفهوم البيان وظيقتان؛ الأولى إفهامية، والثانية حجاجية إقناعية، ولعل ما جعله يهتم بالحجاج انتمائه إلى المعتزلة الذين يعرفون بالدفاع عن آرائهم ومحاولة دحض آراء خصومهم.

ويظهر اهتمام الجاحظ بالإقناع في حديثه عن البلاغة، حيث قال: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيّد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السّوقة، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفىها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيمًا، أو فيلسوفًا عليماً"¹⁸.

فقد جمع بين العناصر اللغوية، وما يحيط بها أثناء العملية التخاطبية، مركزاً على المتكلم لتحقيق الإقناع والتأثير في المتلقي، وبذلك فقد تناول الجاحظ الاستراتيجية الحجاجية في كتابه البيان والتبيين، حيث ذكر الخصائص الايجابية للخطيب التي تمنح القبول لخطابه، وتنبّه إلى الخصائص السلبية له، والتي تضعف موقفه مثل العيوب النطقية، والعي... وبين ما يجب أن يتحلّى به من أخلاق، ولم يغفل العلامات السيميائية ودورها الحجاجي، ولم يكتف بذلك، بل ربط مفهومي البيان

¹⁸ - الجاحظ، البيان والتبيين، ص 92.

والبلاغة بالإقناع، هذا ما جعل غايته في البيان والتبيين هي الخطاب الإقناعي الشفوي¹⁹.

وقد جعل الجاحظ الوظيفة الحجاجية من وظائف البلاغة، وهو ما أورده على لسان إسحاق بن حسان بن قوهي حيث قال: "لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط، سئل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج"²⁰.

كما تناول أبو الوليد الباجي الحجاج بالتفصيل في كتابه: "المنهاج في ترتيب الحجاج" فهو يعتبر أن الجدل أو الحجاج: "من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنًا؛ لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة، ولا علم الصحيح من السقيم ولا المعوجّ من المستقيم"²¹، فقد سما بالحجاج إلى أعلى الدرجات، فجعله من أعظم العلوم لما له من أهمية بالغة خاصة في عصره، فهو يعتبره سبيل الوصول إلى الحق وتجنب الباطل.

وقد وضع أبو الوليد الباجي مجموعة من الشروط التي ينبغي على المتكلم اتّباعها لبلوغ مراده المتمثّل في الإقناع، حيث قال: "لا يتكلم على ما لم يقع له العلم

¹⁹ - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 448.

²⁰ - الجاحظ، البيان والتبيين، ص 115-116.

²¹ - أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، دار العرب الإسلامي، ص 8.

به من جهته، ولا يتكلم إلا على المقصود من كلامه، ولا يتعرض لما لم يقصده مما جرى من خلاله، فإنّ الكلام على ما لم يقصده عدول عن الغرض المطلوب، ولا يستدلّ إلا بدليل قد وقف عليه وخبره وامتحنه قبل ذلك وعرف صحته وسلامته؛ لأنّه ربما يستدل بما لم يعنى في تأمله ولا تصحيحه، فيظفر به خصمه ويبين انقطاعه، ويجتهد في الاختصار، فإن الزلل مقرون فيه بالإكثار²².

وبذلك فقد استطاع أن يقعد للحجاج، ويضع له مجموعة من الشروط وهي: العلم، والقصد والاستدلال بالدليل الصحيح.

أما الجرجاني فقد إلى دور الصور البيانية الفعال في التأثير والإقناع حين قال: "ومثاله قولنا: "رأيت أسدا" وأنت تعني رجلا شجاعا، و"بحرا"، تريد رجلا جوادا... فقد استعرت اسم الأسد للرجل، ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة، وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدّته، وسائر المعاني المركوزة في طبيعة، مما يعود إلى الجرأة..."²³.

فقد جعل للاستعارة قدرة على التأثير في النفوس، وهو ما يعني أن قيمتها الحجاجية أعلى من غيرها من الملفوظات.

²² - المصدر السابق، ص10.

²³ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص33.

كما تنبه الجرجاني إلى القيمة الحجاجية للتمثيل، وبيّن دوره في التأثير، وذلك في قوله: " واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، وتُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفتدة صباية وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيهما محبة وشغفا"²⁴.

من هنا يمكن القول إن البلاغيين القدامى اهتموا بالحجاج وتفتنوا إلى القيمة الحجاجية للمفوضات خاصة البلاغية منها.

²⁴ - المصدر السابق، ص115.